

(٥)

إسقاط الخلافة الإسلامية

وعندما حدث زلزال إسقاط الخلافة الإسلامية - في عشرينيات القرن العشرين - تراوحت المواقف واختلفت ردود الأفعال إزاء هذا الزلزال . .

فالأمة - بجماهيرها العريضة - قد بكت سقوط هذا البناء الذي شاده صحابة رسول الله ﷺ ، والذي حقق مقاصد الإسلام في وحدة الأمة . . والدار . . وسيادة الشريعة ووحدة القانون .

وعن موقف الأمة هذا، عبّر أمير الشعراء أحمد شوقي [١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ ١٨٦٨ - ١٩٣٢ م] عندما قال عن الخلافة . . وإلغائها . . وفتنة ذلك الإلغاء في عالم الإسلام :

وبكت عليك ممالك ، ونواح
تبكى عليك بمدّمع سحّاح
أمحاً من الأرض الخلافة ماح ؟

ضجت عليك مآذنٌ ، ومنابر
الهند والهبة ، ومصر حزينة
والشام تسأل ، والعراق ، وفارس

فقعدن فيه مقاعد الأنواح
 قتلت بغير جريرة وجنّاح
 ونضوا عن الأعطاف خير وشاح
 قد طاح بين عشية وصباح
 كانت أبرّ علائق الأرواح
 جمعت عليه سرائر النزاح
 فى كل خطوة جُمعة ورواح
 بالشرع، عرييد القضاء، وقّاح
 لم يوحها غير النصيحة واح؟
 عن حوضها ببراعة نضّاح
 وهوى لذات الحق والإصلاح
 يدعو إلى (الكذاب) أو لسجّاح
 فيها يُباع الدين ببيع سماح
 وهوى النفوس، وحقدّها الملّاح^(٦)

وأنت لك الجمع الجلائل مأتما
 يا للرجال، حرّة موءودة
 نزعوا عن الأعناق خير قلادة
 حسبّ أتى طولُ الليالى دونه
 وعلاقة فصمت عرى أسبابها
 جمعت على البر الحضور، وربما
 نظمت صفوف المسلمين وخطوهم
 بكت الصلاة، وتلك فتنة عابث
 من قائل للمسلمين مقالة
 عهد الخلافة فى أوّل ذائد
 حب لذات الله كان، ولم يزل
 فلتسمعن بكل أرض داعيا
 ولتشهدن من بكل أرض فتنة
 يُفتّى على ذهب المعزّ وسيفه

هكذا عبر شعر أمير الشعراء - أحمد شوقي - عن مأثم الأمة لكسر وعاء
 وحدتها، وطى صفحة الخلافة، التى بناها صحابة رسول الله ﷺ
 لتكون الامتداد لدولة النبوة فى المدينة المنورة، ولتجسد تميز فلسفة الحكم
 فى شريعة الإسلام . .

* أما المفتونون بالنموذج الحضارى الغربى، الكارهون للنظام
 الإسلامى فى السياسة والحكم - والذين تنبأ أمير الشعراء بهجمتهم على
 الخلافة الإسلامية، لتشويهاها . . عندما قال :

فلتسمعن بكل أرض داعيا يدعو إلى (الكذاب) أو لسجّاح

فلقد تجاوزوا موقف الفرع - فى مآتم الأمة - إلى حيث أرادوا إهالة التراب على تاريخ هذه الخلافة، والتشويه لصورتها، والافتراء على طبيعتها. . . وذلك حتى يصدوا الأمة عن أى أمل فى إعادة إحيائها، وتجديدها. . . فكتب الشيخ على عبد الرازق [١٣٠٥ - ١٣٨٦ هـ ١٨٨٧ - ١٩٦٦ م] عن الخليفة والخلافة الإسلامية، مصورا إياها نظاماً للقهر والاستبداد - حتى فى عهد الراشد! - وزاعماً أنها سلطة دينية - كالدولة الكنسية الأوروبية - فقال: «إن الخليفة ولايته عامة مطلقة. . . وهو يقوم فى منصبه مقام الرسول ﷺ. . . وينزل من أمته منزلة الرسول من المؤمنين. . . فولايته كولاية الله - تعالى - وولاية رسوله. . . بل لقد رفعه المسلمون فوق صف البشر، ووضعوه غير بعيد من مقام العزة الإلهية. . . ولم تركز الخلافة - [على مر تاريخها. . . وحتى فى عهد الراشد] - إلا على أساس القوة الرهيبية!!»^(٧).

* ولقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يأتى الإنصاف للخلافة الإسلامية، من خارج دائرة الإسلام. . . ومن خارج دائرة علماء الإسلام. . . فصدرت العديد من المؤلفات، التى كتبها عدد من المستشرقين، حمل أغلبها الإنصاف والموضوعية فى الحديث عن طبيعة الخلافة وعن تاريخها. . . لقد كتب «سير توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠ م] كتابه عن [الخلافة] ١٩٢٤ م. . . وكتب «سانتيلانا» [١٨٥٥ - ١٩٣١ م] عن [الخلافة والسلطان فى الشرع الإسلامى] ١٩٢٤ م. . . وكتب «جب» [١٨٩٥ - ١٩٦٧ م] عن [نظرية الماوردى فى الخلافة] ١٩٣٧ م. . . وعن [الخلافة فى الإسلام] ١٩٣٩ م. . . وعن [الخلافة عند السنة]

١٩٤٧م .. وعن [تطور الحكومة فى صدر الإسلام] ١٩٥٥م .. وعن [الحكومة والإسلام فى صدر العصر الجاهلى الأول] ١٩٦٢م .. كما كتب «مرجليوث» [١٨٥٨ - ١٩٤٠م] عن [الاعتبارات التاريخية فى الخلافة] ١٩٢١م .. وعن [معنى كلمة الخليفة] ١٩٢٢م .. وعن [الخلافة] ١٩٢٤م ..

وفى كثير من هذه الكتابات، ميز علماء الاستشراق - وأغلبهم خبراء فى الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية - بين الطبيعة المدنية للخلافة الإسلامية وبين الطبيعة «الدينية - الحبرية» . الكهنوتية» للدولة الكنسية التى عرفتها أوروبا فى عصورها الوسطى . . وأكدوا على أن إسلامية القانون فى الخلافة الإسلامية لا تعنى أن دولة هذه الخلافة كانت دولة دينية، بالمعنى الكنسى الغربى .

وكنموذج على هذا الفكر الموضوعى، والمنصف للخلافة الإسلامية . . كتب المستشرق «دافيد دى سانتيلانا» يقول : «إن خلفاء الرسول ما هم بوارثى رسالته الروحية . . لقد أبى أبو بكر قبول لقب «خليفة الله»، واكتفى بلقب «خليفة رسول الله»، ثم درج لقب «أمير المؤمنين» منذ زمن عمر بن الخطاب، فحدد بكل وضوح صفة ممثل السلطة العليا، الذى هو فى الحقيقة ليس عاهلاً «ملكاً» بل هو «أمير» . . أما وظيفته الدينية - وهى أصل جميع وظائفه الأخرى - فليس منها ما يضافى على الخليفة صفة القداسة، أو يسمه بميسم الكهنوت . . إن سلطة الخليفة، كرئيس دينى، لا يمكن أن تعتبر سلطة حبرية أو بابوية، فهو

متجرد تماماً من صفة الكهنوت؛ لأن حكومة المسلمين ما كانت فى اى زمن أو ظرف حكومة دينية، ولم يوجد فيها تعاقب رسولى . . . (٨).

* أما فرية القهر والاستبداد - التى رمت بها الخلافة الإسلامية - والتى اعتبرت مكوناً أساسياً من طبيعتها وبنية تكوينها - فلقد شاء الله - سبحانه وتعالى - أن يأتى الرد عليها من الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] - الصديق الحميم للشيخ على عبد الرازق!! - فلقد كتب عن هذه الخلافة فقال: «قد يظن بعض الذين تخذعهم ظواهر الأمور أن نظام الحكم الإسلامى - [فى العهد النبوى وفى الخلافة] - كان نظاماً ثيوقراطياً . . . يستمد سلطانه من الله، ومن الله وحده، ولا شأن للناس فى هذا السلطان . . . ولا شك أن هذا الرأى هو أبعد الآراء عن الصواب . . . ذلك أن الإسلام لم يسلب الناس حريتهم، ولم يملك عليهم أمرهم كله، وإنما ترك لهم حريتهم فى الحدود التى رسمها لهم . . . لقد ترك لهم عقولاً تستبصر، وقلوباً تستذكر، وأذن لهم فى أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . . . وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضاً إلا أن يعطيهم عهده ويأخذ منهم عهدهم، ثم يمضى فيهم الحكم بمقتضى هذا العقد المتبادل بينه وبينهم . . . فالخلافة الإسلامية عهد بين المسلمين وخلفائهم . . . ولقد قام أمر الخلافة كله على البيعة، أى على رضا الرعية، فأصبحت الخلافة عقداً بين الحاكمين والمحكومين، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد أن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل، وأن يرعوا مصالحهم، وأن يسيروا فيهم سيرة النبى ما

وسعهم ذلك، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا وأن ينصحوا ويعينوا. . . لذلك، فإن رأى القائل بأن نظام الخلافة إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى. . . هو أبعد الآراء عن الصواب. . .

لم يكن نظام الحكم الإسلامى نظامَ حكم مطلق، ولا نظاماً ديمقراطياً على نحو ما عرف اليونان، ولا نظاماً ملكياً أو جمهورياً أو قيصرياً مقيداً على نحو ما عرف الرومان، وإنما كان نظاماً عربياً خالصاً، يبين الإسلام له حدوده العامة من جهة، وحاول المسلمون أن يملثوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى. . . لقد كان نظاماً إنسانياً، ولكنه على ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً. لم يكن الخليفة يصدر عن وحى أو شىء يشبه الوحى فى كل ما يأتى وما يدع، ولكنه على ذلك كان مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتتاب المنكر والصدود عن البغى^(٩).

هكذا شهد طه حسين للخلافة الإسلامية. . . ونفى عنها تهمة الاستبداد. . . وفرية الثيوقراطية جميعاً. . .
